

نجيب محفوظ من خلال أعماله الروائية

عاشق حسين مير
باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها،
جامعة كشمير، سرينغر

رياض أحمد راتهر
باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها،
جامعة كشمير، سرينغر

لا يختلف فيه الاثنان أن نجيب محفوظ من أشهر الروائيين في الأدب العربي الحديث الذي رفع الأدب العربي إلى ذروة القمة وله مكانة مرموقة في العالم العربي بفكرته الرفيعة وأسلوبه الفائقة في فن الرواية، وأنه ألف عديدا من الروايات وعشرات من مجموعة الأقاصيص قدم فيها الجوانب الاجتماعية والسياسية والإصلاحية وغير ذلك. ونال شهرة عالمية بإنتاجاته الوفيرة الممتازة وبالإضافة إلى ذلك أنه نال عددا من الجوائز الشرفية في العالم العربي والأجنبي وجدير بالذكر أنه أول أديب عربي حصل على جائزة نوبل العالمية في الأدب عام ١٩٨٨ م. وكان مفخرا من مفاخر الأدب العربي.

نشأته وتعليمه

اسمه الكامل هو نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم أحمد باشا حيث تعود أصول أسرته إلى مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وُلد في حي الجمالية وهو أحد أحياء منطقة الحسين بمدينة القاهرة المصرية في ١١ ديسمبر ١٩١١ م. (١)

تلقى دروسه الأولى في مدرسة الحسينية الابتدائية. وانتقل في المرحلة الثانوية وأظهر تفوقا في التاريخ واللغة العربية والعلوم لكنه كان ضعيفا في اللغات الأجنبية. وفي التاسعة عشرة قرّر أن يدرس الفلسفة، بالرغم من معارضة والده وأقربائه وأصدقائه. فالتحق بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأوّل (القاهرة الآن) طالبا بقسم الفلسفة (٢) غير أنه لم يعتمد على كتبه الدراسية فحسب وإنما قرأ أعمال أدباء مصر من أمثال طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وغيرهم الذين كانوا يحاولون محاولة شديدة في إزالة المناهج التقليدية القديمة وتقديم الأفكار والمناهج الجديدة في الأدب العربي. تأثر بهم تأثرا كبيرا. (٣)

وقد حصل نجيب محفوظ على درجة الليسانس سنة ١٩٣٤ م. ونظرا إلى موهبته قررت الجامعة أن ترسله في بعثة إلى فرنسا للدراسات العليا لكن الظروف الحكومية السيئة حرمته من تلك البعثة. وكذلك لم يستطع إتمام دراسته العليا في مصر نفسها بسبب بعض ظروف الحياة فتخرج من الجامعة في سنة ١٩٣٤ م. وبعد ذلك حاول نجيب محفوظ أن يستمر في الدراسة الأكاديمية، فأخذ في الأعداد لدراسة الماجستير لمدة عام واختار موضوعا لرسالته "مفهوم الجمال في الفلسفة الإسلامية" تحت إشراف الشيخ مصطفى عبد الرزاق (١٨٨٥-١٩٤٧ م)، ثم غير رأيه وقرّر التركيز على الأدب. وفي أثناء هذه المدة اتصل بسلامة موسى (١٩٥٨-١٩٨٨ م) الصحفي والمفكر الكبير وتأثر بنزعتة التجديدية وحماسته لفكرة العدالة الاجتماعية تأثرا عميقا. (٤) وهذان الأديبان جعلاه "شخصية فكرية وأدبية جديدة، مليئة بالحيوية والاستقلال والموهبة". (٥)

تكوينه الثقافي

طالع نجيب محفوظ على كثير من أدباء العرب والأجانب على السواء واستفاد من المناهل الأدبية كل الاستفادة التي أثرت في تكوين شخصيته الأدبية كما يقول نفسه:

"إنّ تكويني الأدبي كان نتيجة لقراءة الكثيرين من الأدباء العرب والأجانب، فمن العرب تعلمت من قراءة لطف حسين والعقاد وسلامة موسى والحكيم والمازني، ومن الأجانب تولستوى ودستوفسكي وتشيكوف وجيمس جويس وكافكا وشكبير" (٦).

هكذا استفاد من اللغات الأجنبية وأدائها بما فيها آداب روسيا وفرنسيا وإنجليز التي أثرت في شخصيته الأدبية أثرا بالغا، فبدأ نجيب محفوظ كتابة الرواية العربية، وكتب ست وثلاثين رواية فنية تشمل الروايات الفنية والتاريخية والرومانسية والاجتماعية والواقعية وما إلى ذلك.

رواياته التاريخية

هكذا تنوعت موضوعات نجيب محفوظ في رواياته طبقا لاختلاف رؤيته واهتماماته في المراحل المختلفة من حياته، ففي البداية كتب سلسلة الروايات التاريخية، كما يتحدث عنها قائلا: "خطر لي أن أكتب تاريخ مصر كله من خلال سلسلة أعمال رواية تاريخية أشبه بما فعله جورجي زيدان وبدأت هذه السلسلة برواية "عبث الأقدار" ولكنني توقفت بعد ذلك لأنني وجدت أنها سيعطيني عن عملي الأصيل - وهو الرواية الفنية - وذلك لأن الرواية التاريخية تحتاج إلى جهد كبير من بحث ودراسة وتجميع المعلومات وربما عاودني الحنين إلى الرواية التاريخية بعد الأعمال الفرعونية الثلاثة الأولى لمرّة واحدة في رواية العائش في الحقيقة نتاجه المنشور في تلك المرحلة يشمل ثلاثة روايات تاريخية لمصر القديمة "عبث الأقدار" و "رادوبيس" و "كفاح طيبة" وما إلى ذلك" ولم يقتصر فيها على التاريخ وإنما عبّر عن الواقع المصري وعن إحساسه بهذا الواقع قائلا "إنني لم أقدم في تلك الروايات شخصية تاريخية ولم يكن همي أن أنقل القارئ إلى حياة ماضية، ولكنني باستمرار أمور الحاضر" (٧) على الرغم من أنّ هذه الروايات روايات تاريخية رومانسية بحيث غلب فيها عنصر التاريخ الذي اهتم به المؤلف اهتماما خاصا.

رواياته الاجتماعية (الواقعية)

وبعد أن كتب رواياته التاريخية الثلاثة انغمس نجيب محفوظ في أحوال المجتمع المعاصر وكتب عديد من الروايات الاجتماعية بدأ من "القاهرة الجديدة" وانتهاء بـ "الثلاثية" كما يقول نفسه عن تحوله إلى الواقعية:

"هيأت نفسي لكتابة تاريخ مصر القديم كله في شكل روائي على نحو ما صنع "ولتر سكوت" (Walter Scott) في تاريخ بلاده، واعدت أربعين موضوعا لروايات تاريخية، رجوت أن يمتدّ بي العمر حتى أتمها، وكتبت ثلاثا بالفعل هي "عبث الأقدار" و "رادوبيس" و "كفاح طيبة" وبقي ٣٧ موضوعا جاهزا للكتابة... وفجأة إذ بالرغبة في الكتابة الرومانسية التاريخية تموت في نفسي، وأجدني أتحوّل إلى الواقعية في القاهرة

الجديدة بلا مقدمات..."(٨).

وركز نجيب محفوظ في هذه الرواية على الطبقة المتوسطة الصغيرة وهي الطبقة التي تُقدس القيم وتراعى التقاليد ويرضع أبناءها عادة تحت طائفة كبيرة من القيود والضغوط الاجتماعية المتنوعة وهي لذلك تعتبر مجالاً خصباً للانحرافات والعقد التي يقدم لنا منها محفوظ في "زقاق المدق" وفي "بداية ونهاية" ثم في "الثلاثية" ومن خلالها يصور لنا الكاتب مشاكل أفرادها وقضاياهم والظلم الاجتماعي الذي واجهه الكاتب نفسه في المجتمع المصري، ويزيد في "الثلاثية" البعد الإنسانية العميق الشامل إذ أنما حلّ بأسرة عبد الجواد في نهاية الكتاب هو ما يحل بكل أسرة بشرية في أي زمان وفي أي مجتمع.

نظراً إلى رواياته الواقعية لا بدّ لنا من ذكر أنها تنقسم إلى قسمين أمّا القسم الأول فهي تحوي على الروايات التي كتبها قبل الثورة يعني سنة ١٩٥٢م ومن هذه الروايات: "خان الخليلي" ١٩٤٥م و"القاهرة الجديدة" ١٩٤٦م و"زقاق المدق" ١٩٤٧م و"بداية ونهاية" ١٩٥١م و"الثلاثية": (بين القصرين، وقصر الشوق، والسكرية) وروايات هذه المرحلة مزيجاً من المذاهب الطبيعية والواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية الروسية. لجأ فيها المؤلف إلى المذهب الواقعي الطبيعي، وأبرز التفاصيل الدقيقة للحياة فرسم الشخصيات والبيئات رسماً تفصيلياً. (٩)

وأما القسم الثاني فيحوي على الروايات التي كتبها نجيب محفوظ بعد الثورة وهي: "أولاد حارتنا" ١٩٥٩م و"الرص والكلاب" ١٩٦١م و"السمان والخريف" ١٩٦٢م و"الطريق" ١٩٦٤م و"الشحاذ" ١٩٦٥م و"ثرثرة فوق النيل" ١٩٦٦م و"ميرامار" ١٩٦٧م وما إلى ذلك.

ومن خلال هذه الروايات نجد أنها تشد القارئ وتحثه على متابعة القراءة دون أن يتمكن من ترك الرواية قبل أن تنتهي فقد استطاع ببراعته ومهارته من تناول الطبقة الوسطى في المجتمع المصري بامتياز من خلال عين ثاقبة وربطها بعلاقات مع شرائح مختلفة من المجتمع تنوعت بين المجتمع الأرستقراطي ومجتمع الفقراء وبين

مجتمع الشرفاء ومجتمع السارقين ومدمني الخمر والمخدرات. وبين هذا كله برزت المرأة بوضوح في أعماله حيث تغلب على صورة المرأة في رواياته صورة سلبية، وهي الحقيقة التي نعترف بها بشأن مصر في الزمن الذي تصوره روايات نجيب محفوظ. وكما يتراءى لنا من خلالها أنه كان ميالا في أعماله الرواية إلى الحارة وإلى البسطاء فينقل واقعهم ويعيد صياغة حياتهم وفق تصورات فكرية إبداعية جديدة حيث كانت رواياته تكريسا للواقعية بكل معطياتها. تعتبر رواياتها نموذجا رائعا تطل على روح مجتمع لا في مصرت فحسب، بل البلاد العربية كلها. وتعد رواياته صورة لمجتمعه وعصره وقد حاول نجيب محفوظ التفنن في عرض تلك الصور فجاءت مرة واقعية وأخرى نفسية وأخرى فلسفية.

أما الرؤية التي يريد نجيب محفوظ تقديمه هي رؤية الأمن والسلام والاستقرار والحنان والحرية والكرامة. ومنع تجارة الأجساد والدماغ والمخدرات والعجز عن إيجاد عمل مثمر إلى حيث يكون الإنسان آمنا مطمئنا شريفا سعيدا إنها رحلة إنسان من أجل تأمين نفسه ومن أجل معرفة نفسه ومعرفة الآخرين.

وقد حاول نجيب محفوظ من خلال رواياته الاجتماعية أن يقدم النموذجين أمام القارئ نموذجا صالحا للاقتداء ويعتمد عليه فهو نموذج الخير والمحبة الذي يدعو إلى العمل وإلى سلوك الطريق المؤدي إلى البحث الصحيح والنموذج الثاني وهو يدل على دلالة المتعة واللذة والعلاقات غير المشروعة وهي دلالة الطريق الخاطئ السلبي، ذلك الطريق الذي يدعو للعبث والسعي نحو اشباع المتطلبات الجسدية، وتكون نتيجتها البحث العقيم والخاطئ المؤدي إلى السقوط والفسل.

وقد انشغل نجيب محفوظ في هذه الروايات بوجه خاص بالطبقة المتوسطة الصغيرة بكل ما فيها من مشاكل وأزمات وهموم ورغبات. وجدير بالذكر هنا أنه ينحدر من الطبقة الوسطى لذا يتراءى لنا أنه أشد الناس حبا لهذه الطبقة لأنه أحد أبنائه. (١٠) ولذلك نرى أنه جعل هذه الطبقة مادة أساسية في معظم رواياته. ولم يهتم بطبقة الفلاحين وبشئون الطبقة الارستقراطية لأنه لم يكن لديه تجربتهم. (١١)

وجميع هذه الروايات تعطينا الذوق المصري الحقيقي، وذلك أن كاتبها سجل فيها عواطف المجتمع المصري الحديث وأزماته وتطوراته الروحية بخصوصية وعمق حتى نستطيع أن نفهم المجتمع المصري بهذه الروايات أكثر مما نستطيع أن نفهم من كتب المؤرخين. (١٢)

القضايا التي أثارت من خلال رواياته

أما القضايا التي أثارها نجيب محفوظ من خلال أعماله الروائية هي أنه كتب وناقش المشاكل الاجتماعية والمفاسد القومية ولا سيما الموجودة في الأسر المتوسطة، ناقش الفقر والبؤس والجمود ودعا الناس إلى العدالة الاجتماعية والمساواة الاقتصادية. هكذا أخذ يناظر الطبقة العليا من المجتمع العربي وطلب الأرسقراطيين أن ينحطوا من مكانتهم الرفيعة من أجل محو الفرق بين الغني والفقير والسيد والعامل ويدرك هذه الحقيقة أن الناس كلهم سواء. وكذلك ناقش الكاتب مناقشة تامة جوانب الفقر والمجاعة التي دفعت القوم إلى الورا، كما تناول المخدرات والانحلال الجنسي الذي شاع في مجتمع مصر بشكل خطير وكذلك ذكر عن الخمر والخمارات والخمارين وعن الأنس والطرب والغناء في رواياته وقصصه. وقدم لهذه القضايا والمشاكل الاجتماعية المتأصلة في أمة مصر الحلول المقترحة. وهذه فكرته الممتازة الذي تناولها في رواياته نفست روحا اجتماعيا جديدا في مصر، حيث يُذكر ويثني على مجهوداته المشكورة الصالحة وهذه القضايا ذات الأهمية البالغة توجد في معظم رواياته حيث ينشغل في إعداد رواياته التاريخية ويدعوا القراء إلى الوحدة المصرية التي تعكسها أمثال الروايات "عبث الأقدار" و "رادوبيس" و "كفاح الطيبة". وبالجملة توجد هناك القضايا والأمور الكثيرة في روايات نجيب محفوظ وقصصه إلا أننا أشرنا إلى بعض منها. والآن نستطيع القول إن هذا الراء قد أتاح للروايات صورة مغرية جذابة لم يأت بها أحد سواه، وله فضل كبير فيما هو الموجود من الأفكار والمفاهيم القصصية الرائعة في عصرنا هذا وما فيها من الروائع ذات العلاقة القومية والصلة الشعبية.

الهوامش:

- ١- الدكتور حمدي السكوت: قاموس الأدب العربي الحديث، دار الشرق-القاهرة، ص: ٥٩٢ وقد يقول الدكتور يوسف نوفل والكتاب الآخرون أنه ولد في سنة ١٩١٢ انظر في "الفن القصصي بين جيلي طه حسين ونجيب محفوظ"، ص: ٩٦، وانظر أيضا في كتاب "دراسات أدبية" لأحمد هيكل، ص: ١٨٦
- ٢- الدكتور حمدي السكوت: دراسات في الأدب والنقد، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٩٠م، ص: ٨٥-٨٦
- ٣- يوسف نوفل: الفن القصصي بين جيلي طه حسين ونجيب محفوظ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م ص: ٩٩
- ٤- رجاء النقاش: "العصور" عدد خاص، ٢١ أكتوبر ١٩٨٨، ص: ٣٣
- ٥- نفس المرجع والصفحة نفسها
- ٦- الدكتور مصطفى علي عمر: القصة وتطورها في الأدب المصري الحديث، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، ص: ٢٣٥
- ٧- فاطمة الزهراء: الرمزية في أدب نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص: ١٢
- ٨- فؤاد دواره: مجلة "الهلال" نوفمبر سنة ١٩٧٠م، ص: ١٠٢
- ٩- رجاء النقاش: مجلة "الأداب" مارس سنة ١٩٦٣م، ص: ٣٩-٤٠
- ١٠- أحمد هيكل: دراسات أدبية، مطبعة القاهرة الجديدة، القاهرة، بدون تاريخ ص: ١٨٩

١١- Hamdi Sakkut: The Egyptian Novel and Its Main Trends,

Dar Al-Ma'arif, Cairo, 1971 p.144

- ١٢- الدكتور صلاح الدين تارك، نجيب محفوظ والرواية الواقعية، مؤسسة براون بوك للطباعة والنشر الخاصة المحدودة، نيو دلهي، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص: ٩٠-٩١

* * *